الرهان

قصة بقلم حيدر حيدر

كانوا في المقهى . ثلاثة شباب يجلسون في زاوية من زوايا المقهى . في المنافض لفافات مطفأة واخرى مشتعلة وبعض الصحف، وحولهم امتد الضجيج . جلبة صلبة مفلتة في فراغ ضيق كابوسي .

كان الثلاثة عربا ، كتب على جواز سفر احدهم : فلسطيني . وعلى جواز الاخر : سوري . وكان الثالث مصريا . لقد وفدوا المقهى بالتتابع .

ولانها مدينة صغيرة بعيدة تكاد تكون غريبة عنهم ، كانوا يلتقون هنا . ولان لا شيء يعمل في مثل هذه المدن العربية المتزمتة ، في مساءات العطل والاعياد غير الثرثرة كانوا يفدون الى المقهى ويلتقون. هم ايضا كانوا شبه غرباء ، ومع ذلك راحوا يثرثرون كعادتهم وهم يحتسون القهوة .

الفلسطيني يبدو متعبا في وجهه الانهدامي ، غير ان احاديثه تنبيء عن انشراح داخلي تفصح عنه ابتسامته العريضة . ها هو ذا يتحدث باقتضاب سريع عن امراة نامت معه قبل لحظات اعطته متعة واكتفاء . يقول مغمغما .

ـ المراة تغبط الانسان كحمام دافيء في ليالي الشتاء .

بعد قليل ينتقل الى موضوع يقول انه يؤرقه باستمرار :

ـ ماذا لو اكتشف العلماء ان المريخ صالح للحياة وان هناك حياة اخرى غير حياتنا !.

انه يؤكد بسهولة مدهشة ان ذلك ليس مجالا ، وهذا يعني بشكل ما ان الارض ربما كانت كوكبا اصطناعيا ، وهذا بدوره سيؤدي الى الشك في امور كثيرة كانت فيما مضى مسلمات . ويتابع بانسيابية خاصة :

ـ في مثل هذا الوضع الجديد يصبح التاريخ سخرية وكذلك الانسان .

السوري يبدو مستنفرا ابدا ، متحفزا للغضب لاول بادرة .هكذا يبدو من خلال نظراته الحادة وحركة جسده ويده القلقة ـ ولعله لم يكن يدرك المرامي التي قصدها جاره ، لكنه عندما اشار الى التاريخ مقترنا بالسخرية . هب قليلا عن كرسيه ثم هبط . كور قبضته الضارية ودق بها طرف الطاولة السوداء :

ـ استاذ . انتتخرف على ما يبدو . التاريخ لا يمكن انيكون سخرية . السخرية هي عدم قدرتنا واهمالنا لتاريخنا . عندما نقرا التاريخ جيدا يمكننا ان نفهم . المستقبل لا يفهم الا على ضوء الماضي وهذا ما يعلمنا اياه التاريخ .

ـ الفلسطيني طفت على وجهه دهشة مفاجئة . دهشة مشوبة بسخرية كانت تكتم في الاعماق ضحكة غريبة . لكنه اكتفى بالتحديق في وجه جاره السوري مستغربا . حاول ان يوضح ما هدف اليه ، لكن الاخر اعترضه صائحا :

ـ يكفي . يكفي . انا اعرف ما تريد قوله سلفا .

احمر وجه الفلسطيني . قال :

ـ اسمع . انا لم اقل ما فهمت انت . وانت لم ترد على ما قلته انا . وانا لا اريد ان اوضح ما تعرفه ، وانا وانت نعرف ولا نعرف شيئا على ما يبدو .

فجاة انتزق السوري :

ـ انتم الفلسطينين ...

واعترض الآخر :

ـ ولكنك لم تفهم قصدي . اعني ...

ثم اتجه نحو الشاب المصري الذي فتح جريدة راح يتصفحها :

ـ هيه . انت لماذا لا تتدخل يا اخي ؟

وانتبه المصري : ـ اتدخل : بماذا ؟

ـ بهذه المسالة اللعينة . اعني بهذا التفاهم السيىء بيننا !

ـ اية مسالة ؟

قالها الشاب المصري بنوع من الحياد واللامبالاة . واذ لاحظ الفلسطيني ذلك استدرك :

ـ لا شيء . لا شيء سوء تفاهم صغير لا معنى له .

بدا الفلسطيني مغتاظا ، كتم غيظه بلفافة نفث دخانها بعصبية في الفراغ الضنك . بعد صمت قصير حوّل الحديث فجاة :

ـ اعتقد انها الحرب هذه المرة !

قال جملته هكذا بتلقائية ، غير مدرك انه قد اوقد نارا اخرى وخلق مسالة اكثر تعقيدا من مسالة المريخ والتاريخ . وبدا يوضح فكرته عن الحرب الرابعة بين العرب واسرائيل . وكان ملخص فكرته بان الحرب ضرورية لان الحكام العرب اذا لم يحاربوا فستسقط انظمتهم التي اطلقوا عليها لقب التقدمية ، والشعب لن يصمت الى الابد على الكذب والتهريج . من اجل هذا لابد لهم من تبديد غضب الشعب في حرب رابعة .

ولان السوري الغضب ابدا كان منتبها ، متوتر الاعصاب ، لم تعجبه الفكرة لذا امتعض معترضا :

ـ انك تتحدث عن حرب وهمية . أهؤلاء العسكريون جديرون باثارة حرب ؟ ان الحرب تفقدهم السلطة والامتياز . ثم لنفترض ان حربا رابعة قامت ، فمن المنتصر فيها ؟

كان المصري يسمع وهو يقرأ الجريدة الرياضية .

وقال الفلسطيني : ـ ولكن انا لم اتحدث عن النصر . لقد قلت .

وعارضه الاخر : ـ لا . لا . كلامك واضح . انت تؤمن بان الحرب سيعلنها هؤلاء اليمينيون الذين قضوا على اليسار وزجوه في السجون ورفعوا راية الدين والقضاء والقدر . ان هؤلاء يديرون عجلة التاريخ قرنا الى الوراء .

انتزق الفلسطيني رافعا يده :

ـ انا لم اقل ذلك يا اخي . ثم ما دخل اليمين واليسار في الموضوع ؟

السوري قال بثقة :

ـ طبعا هناك دخل . اليسار هو المؤهل للحرب في حين ان اليمين مناور مخاتل ، يتحدث عن الحرب راميا الى التلويح بها لخداع الشعب وتخديره . اليمين عميل ، اما اليسار فمتحرر . اليمين جبان، اما اليسار فشجاع يقتحم دون ان يهاب من النتائج . اليمين يخسر بالحرب مصالحه ، اما اليسار فيربح الشعب والثورة . والمهم في نظره ان يشعل النيران. هذا ما حدث في روسيا والصين وكوريا والفيتنام. بالثورة انتصر اليسار وانهزم اليمين في كل مكان .

الفلسطيني ممتعض . يتميز غيظا ، يريد ان يقول شيئا معقولا ، شيئا يبدو له ممكنا ، لكن هذا الاخر يمنعه . ليس يمنعه فقط انما ينعطف به نحو امور اخرى بعيدة وربما مختلطة سمعها وحفظها وها هو يرددها بآلية في فضاء المقهى . للمرة الثانية يستنجد الفلسطيني بجاره . يقول للمصري :

ـ يا اخي . انت لماذا لا تشارك ؟ أتعتقد ان حديثنا هامشي الى هذه الدرجة ؟

مرة اخرى انتبه المصري . قال : ـ عن اي شيء تتحدثان ؟

ـ عن الحرب واللاحرب .

اوضح السوري : ـ ابدا . عمن يوقد الحرب .

وقال الفلسطيني : ـ ولكن انا يهمني اندلاع الحرب وليوفدها الشيطان .

وقال السوري بحسم : ـ أما انا فيهمني ان يشعل اليسار الحرب.

وقال الفلسطيني : ـ انا كنت اتحدث عن حرب قادمة لا بد ان تحدث .

وقال السوري : ـ وانا كنت اتحدث عن حرب لا تقوم الا باستلام اليسار للسلطة ، وما دام اليسار غائبا فالحرب مستحيلة وقد ضربت امثلة .

وقال الفلسطيني : ـ ولماذا لن تقوم ؟ كل التصريحات والدلائل تشير الى ذلك . اسرائيل لن تبقى في هذه الحالة السائبة .

لاول مرة حاول المصري الادلاء برايه :

ـ لعل اسرائيل يعجبها هذا التسيب . انها تثبت اقدامها على ما اعتقد فيما احتلته .

السوري ارتعد : ـ القضية ليست هكذا ابدا . المسالة هي الثورة .

والثورة تكون او لا تكون . والثورة تعني الحرب والحرب هي الثورة . وما دام اليسار خارج الحكم فالحرب والثورة ضمير مستتر تقديره ـكما قلتـ وصول هذا اليسار الى السلطة. هكذا حدث في...

اكمل الفلسطيني : ـ في روسيا والصين وكوريا ... الى آخر المصطلحات والمحفوظات المسجلة في ارشيفكم الثوري . انك تنسى وانت تردد درسك الميكانيكي ان اليسار شراذم ممزقة تعلن حروبها الجانبية بينما الوحش يبتلع الجميع على مهل .

بدا الفلسطيني في اوج غضبه . اخيرا فجر قنبلته . كانت المسالة قد احتدمت فلم يكتم السوري كلمة « يميني » اطلقها في وجه الفلسطيني . بينما تمتم الفلسطيني كلمة : « أهوج » .

ولكي يعاد الهدوء قليلا بين متخاصمين في مقهى ، في مدينة غربية ، بين أناس بدا وكأنهم غرباء ، رمى المصري جريدته . اشعل لفافة ثم قال باتزان بارد :

ـ ما رأيكما برهان ؟

قال السوري : ـ رهان ؟ وماذا يعني هذا ؟ انراهن من اجل قضية واضحة كالشمس ؟

رد المصري : ـ نراهن من اجل الحرب واللاحرب .

قال السوري مستعجلا : ـ انا أراهن بقطع ذراعي .

المصري بعكاهة معهودة : ـ اليمين ام اليسار ؟

قال السوري جادا : ـ اليسار :

واشار للفلسطيني : ـ وانت اتراهن باليمين ؟

ابتسم الفلسطيني بقرف : انا لم يعد لي لا يمين ولا يسار .

ولكي يحسم النقاش الذي طال بلا جدوى : « لنقترح رهانا » . قال المصري .

انتعظ السوري بحزم : ـ لنراهن بالرؤوس التي تتنطع لحرب ليست اهلا لها .

الفلسطيني قال وهو يحك صدغه :

ـ لا تضخموا الرهان . من كبر الحجر ما ضرب . ليكن عمن يدفع ثمن القهوة عن الجميع .

قال المصري وهم يتاهبون لمغادرة المقهى :

ـ موعدنا اذن هنا في عيد رأس السنة القادمة .

الذئاب

في ساحة المدينة المضاءة والليل قد سجى ، وثمة مطر خفيف تحمله ريح باردة ، كان الرجلان يتسكعان تحت الضوء والشجر . بدا الوقت شفافا شجيا تحت الرذاذ الهابط ومن خلال فتحات الاوراق الخضراء اللامعة .

قال احدهما : ـ ما أعذب الليل والمطر في المدن الغريبة .

الاخر لم يقل شيئا . كان يرنو الى السماء الكامدة السحيقة .

وسأل الاخر : ـ بماذا تفكر ؟

وقال الاخر بتلقائية : ـ بامراة .

واستمر الاول : لو كان للانسان بيت مريح يؤويه في مثل هذا الوقت .

فوقهما كان الفضاء فاتما على ارتفاع مسافة الضوء . وعبرا ممر الاشجار المتعانقة كمظلات خضراء .

كان احد الرجلين قد قضى معظم حياته في فنادق الدرجة الرابعة حيث يتجاور النوم مع الطعام والتبول وكان الانسان ما زال في رحم امه . وانبرى رجل الفنادق يتحدث عن احلامه التي تحولت الى ساحات وغرف واسعة وبحار . وسأل :

ـ لماذا يرى نزيل الفنادق البحر في احلامه ؟

ولان الاخر لم يكن يفكر لا بالفنادق ولا بالبحر ولا بالاحلام جاءه السؤال مباغتا . بدا وكأنه ليس معه . كان ينظر الى اوراق شجر الساحة وقد بدت اكثر اخضرارا تحت المطر الذي غسلها . كانت الاوراق تلمع لمعانا غريبا بين القمة والضوء ، بينما الجذوع الرمادية ترشح بالمطر .

فجاة قال الاخر الذي بدا وكأنه يطرح اسئلة على نفسه :

ـ اذا حدثت الحرب هذه المرة ، سنغادر هذه المدينة اللعينة الى غير رجعة .

ـ هل قلت الحرب ؟ (سأل الاخر منتبها) .

اجاب رجل الفنادق : ـ اجل . لا بد ان تكون قاسية هذه المرة . الا نعتقد انها ستكون الاخيرة ؟

ولانه لا يريد جوابا ، راح يوضح فكرته عن امكانيات العرب وقدراتهم الخلاقة ، والتغير الجديد الحاسم الذي حدث بعد الحرب الثالثة ، وختم فكرته بحكم قاطع :

ـ لا بد من النصر هذه المرة . سيقول التاريخ : كانت هناك اسرائيل .

موجة صقيع عبرت الساحة جاءت بها الريح . الاخر تلفع بمعطفه كانت حجارة الساحة تلمع هي الاخرى بالمطر والضوء . المدينة شبه مغلقة . ثمة صمت مغلف بغلالة حزن شفيف سري يوشح الابنية . وحدها الخطوات تسمع بخفوت فوق الاسفلت .

وسأل نزيل الفنادق مرة اخرى على نحو مباغت : ـ بماذا تفكر ؟

وقال الاخر بهدوء : ـ برجل اسمه سرفانتس .

في طرف الساحة الشرقي سمقت شجرة صنوبر ، عالية ، عالية، بدت عن بعد كمارد . كانت هناك ممتدة الاذرع في فراغ صاف . شجرة بديعة جليلة . شجرة افريقية ذات جذع ضخم .

على حين غرة ظهر من وراء جذعها شبحان . اتجها نحو الرجلين ثم ظهر شخص اخر . عندما اقتربت الاشباح توضح شكل امرأتين ورجل . قال رجل الفنادق :

ـ سائحتان !

كان الرجل الذي تبع الفتاتين يعترضهما الان . ثم ظهر فتى اخر وانضم الى المجموعة . بعد لحظات اندفع ثالث ورابع .

كانت السائحتان ترنديان معطفين اسودين لامعين . وبدتا محرجتين وهما تتحدثان مع الرجال . وفي لمح البصر وكان رائحة الفتاتين قد انتشرت عبر الساحة اندفعت قطعان من الفتية . وبدأت عملية تطويق الفتاتين على نحو مثير مقرف . احستا بهذا الغزو المهدد . مدت احداهما ذراعها فاتحة بصعوبة ممرا في الطوق واندفعت مع رفيقتها خارج الحصار .

الرجل الاول اسرع فتابط ذراع احدى الفتاتين واندفع آخر فتابط الاخرى .

الذين تبقوا جروا صائحين خلف الفتاتين . كانت الاصوات تدوي بهدير وحشي حار . وراح الموكب يتنامى ويدوي غامرا ارض الساحة والضوء والمطر .

خلال لحظة شبيهة بمشهد مسرحي انثقب الهدوء والصمت . تحولا الى هرج وضوضاء ونزاع . وكشفت الساحة تحت رذاذ المطر عن وجه اخر ، صاخب ، مؤلم ، شديد الوحشية .

هناك وسط الساحة بين ممر الاشجار الخضر ، حدث شيء جديد اخر في ليل المدينة العربية . كانت المجموعات المتدفقة باتجاه السائحتين قد دخلت في شجار حاد راحت تنبيء عنه الاصوات القاسية التي تذكر بدوي الغابة البدائي . وكان ذلك الدوي البربري يرج اطراف المدينة . كما كان واضحا للرجلين المتفرجين ان الفتاتين تقتصبان الان تحت الضوء والمطر في ساحة المدينة الغريبة .

الحرب

بين المقهى والساحة شارع . الرجل الذي قطع الشارع بعد مغادرة زميليه المقهى ، والقى قدمه اليسرى فوق حافة الرصيف المقابل، تعثر . كان يرتدي معطفا جديدا وفي معصمه ساعة ومعه باقة ورد . لم يتمم خطواته . على حافة الرصيف طعن بسكين في ظهره . الطعنة وصلت القلب ، لذا لم يحتج الى اخرى . نزعوا ساعته ومعطفه وهربوا. عندما حضرت الشرطة تستطلع شجار الساحة ، رأوا رجلا مطعونا ينزف وقربه باقة ورد تناثرت اوراقها فوق بقع الدم . سأل شرطي زميله:

ـ أتعتقد ان في الامر جريمة ؟

قال الاخر : ـ لا بد انها حكاية مراهقين حدثت وتحدث دائما .

ـ ولكن لا بد من تحرير ضبط بالحادث !

ـ ضبط غامض ، ككل الضبوط الاخرى . حرر .

الجزائر — حيدر حيدر

من منشورات دار الآداب

شخصيات من أدب المقاومة

تأليف سامي خشبة

« ليست هذه محاولة في النقد الادبي التطبيقي ، وليست محاولة لدراسة شخصيات لابطال تاريخيين او مخلوقين على حساب الاعمال الادبية انها محاولة لاكتشاف ما يمكن ان يصنعه الادب بعقلية الشعب الذي يكتب عنه الادب ويكتب له . ان عقلية مصر وروحها في مواجهة كل محاولات غزوها وطمس معالمها القومية والانسانية هي ما يهمني في هذه الدراسات .. ومع هذا فان للبطولة ايضا نصيبا من اهتمام هذه الدراسات ، ولكنها بطولة العقل ـ مهزوما او منتصرا ـ في مواجهة محاولات تجميده في اطار ثقافات الغزاة، او في توابيت ثقافته المحلية التي اجبرت على التوقف عن مواكبة الحياة المتطورة .. ومن هنا ، فان كل ادب ننتجه يهدف الى تأكيد قيم الحرية العقلية والاجتماعية والسياسية والى اعادة الكشف عن حقيقتنا القومية من زاويتها الانسانية هو ادب للمقاومة »

من مقدمة المؤلف

٢٥٠ ق.ل.

صدر حديثا